الأدب العالمي / الحلقة الخامسة

هلدرلن

في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، حيث لم تكن السيادة الا للرومنتيكيين ، كان الوقت يؤذن ب « عصر هالدرلن » ، الذي بدأ مجنونا في الشعر ، وانتهى مجنونا بين الناس .

لم يؤمن شاعر الماني قط بالشعر واصله الالهي كما آمن هلدرلن ، ذلك الشاب الذي رشح لمنصب قسيس . فاذا كان غوته يعتبر الشعر جزءا من الحياة ، فان هلدرلن يرى فيه معنى الحياة بصورة مطلقة ، واذا كان الشعر يمثل عند غوته مجرد ضرورة شخصية ، فانه يمثل عند هلدرلن ضرورة دينية .

هذا هو المفتاح الصغير لشعر هلدرلن المتجه صوب الينبوع الاول ، اي الاله . فالعنصر الرباني هو المركز في بحث الشاعر عن هوية الذات ، ذلك البحث الذي يفضي فيما بعد الى اكتشاف «ربوبية» الذات الموازية لربوبية الاله : « لا يؤمن بالرباني الا الربانيون انفسهم » .

لقد ظل هلدرلن حتى مماته في الظل ، وهو الذي عاصر شيللر ، وغوته ، ونوفاليس ، انما لم يغامر احد من هؤلاء بالجنون كما غامر هلدرلن ، والشعر طفل الجنون ، طفل الفوضى التي تتجاوز نظام العالم لتستكمل نظامها الخاص .

شعر هلدرلن هو شعر القلق والتصوف ، شعر يحدد ماهيته بغموض كوني ، ولكنه يحمل النبوءة ، ويزخر بالعرافة .

اما اعمال هلدرلن فتتوزع بين « اناشيد الى قيم البشرية » و « مراثي ديوتيما » ورواية « هيباريون » ، و « بوادر همبورجية » .

بلا قدر ، كالرضيع النائم تتنفس الكائنات السماوية ،
وهي النقية المصانة ، يزهر روحها ابدا في برعم متواضع ،
وعيونها السعيدة تحدق بصفاء هادىء ازلي .

لكننا نحن ، مقدر علينا الا نستريح في اي مكان.
هؤلاء البشر المتألمون ،
يزولون . انهم يسقطون ، كيفما اتفق
من ساعة الى اخرى .
ومثل المياه ، من جرف الى جرف يرتمون
على مدى السنين في الهاوية .

★

امام كوخه ، في الظل ، يجلس الفلاح
مطمئنا ومكتفيا يرى دخان موقده ،
ومضيافا يدق للسائح في القرية الهادئة جرس المساء .

كذلك يعود الملاحون الى المرفأ ،
وفي مدن بعيدة تزول بفرح ضجة السوق ،
وفي مكان ظليل هادىء
يدعو الطعام المشترك الرفاق .

في السماء المسائية ربيع يتفتح ،
وبغير عدد تزهر الورود ، وبهدوء
يضيء العالم الذهبي . آه ، خذيني
الى هناك ايتها الغيوم القرمزية ، ودعي
جسدي والي يتلاشيان في الضوء والهواء ،

★

سمعت ضفاف الكنج نصر اله الفرح ،
عندما جاء باخوس الفتي من « الاندوس » ،
محتلا كل شيء ، وبنبيذ مقدس ايقظ الشعوب
من نومها .

وانت يا ملاك النهار ،
الا توقظ من ينامون الآن ؟
اعط الشرائع ، اعطنا الحياة ،
وانتصر ايها السيد ، فمن حقك وحدك ـ
مثل باخوس ـ ان تسيطر .

عندئذ أسمع صوت المنقذ في الليل ،
اسمعه مميتا ، أسمع المحرر يبعث الحياة ،
اسمع صوت الراعد يسرع من مغرب الفضاء
الى مشرقه ، وخلفه تعزفين يا أوتاري ،
وكالنبع الذي يلاحق النهر الى حيث يفكر ،
هكذا علي ان ارحل ،
واتبع اليقين في دروب التشرد .

★

يا ضوء الحب ، أتضيء للموتى ، ايها الذهبي؟
ايتها الصور التي كانت اكثر اشراقا ، اتضيئين
في الليل لي ؟
ايتها الحدائق الحبيبة ، ايتها الجبال مجمرة
الغروب ،
مرحى ! وانت يا دروب الحديقة الصامتة ،
انت الشاهدة على السعادة السماوية ،
وانت ايتها النجوم العالية المتطلعة ،
انت التي منحتني مرارا نظرات مباركة .
وانتم ايها العشاق ، يا صغار ايار الجميلين ،
ايتها الورود ، وانت ايتها الزنابق التي اسميها:
فصول الربيع تمضي ، سنة تدفع الاخرى .
متغيرا ومتصارعا يهدر الزمن
فوق رؤوس البشر ، لا امام عيون سعيدة ،
وللمحبين تهدى حياة ثانية .

★

بالندى يلتمع العشب ،
وبمزيد من الحركة يسرع النبع اليقظان ،
وشجرة الزان تلوي راسها المرن ، وفي
الاوراق ينتشي ويلمع ،
وحول الغيوم الرمادية لهب احمر ،
وهناك الغيوم المنبثة ، انها ترتفع
بلا صوت ، كالمد عند الشاطىء ، الى الاعلى ،
والى الاعلى ترتفع هذه الاشياء المتحولة .

كاريكاتور